الرسالة الموسومة بالبرهان على ضعف الانسان

تاليف المعلم ميخائيل مشاقة

لا تكن عند نفسك عاقلاً. وعلى فطنتك لا تعتمد .
امثال ص ٣ ع ٧ ع ٥

هل تعرف ناموس السماء او تصنع ناموسها في الارض
ايوب ص ٣٨ ع ٣٣

فهرس

وجه

بسم الله الحيّ الازليّ

الحمد لله الواجب الوجود لذاتهِ. المتعالي عن جميع مخلوقاتهِ. الذي لا تدرك الاوهام كنه جلالهِ العظيم. ولا يعرفهُ كما هو الاَّ هو سبحانهُ من عزيزٍ حكيم. اما بعدُ فيقول العبد الضعيف الفاني. ميخائيل بن جرجس مشاقة اللبناني. انني منذ ايامٍ وقفت على كتاب دليل الصواب الى صدق الكتاب. الذي من مطالعتهِ يُعرَف فضل مؤَلفهِ المعلم اسكندر الاميريكاني اجزل الله لهُ الثواب. ولما كان هذا الكتاب افضل ما تُرجِم وطُبِع في اللغة العربية مما يتعلَّق بصدق النبوات وتمامها مع اقامة البراهين الراهنة على صحة الديانة المسيحية وكنت اعهد من

اخواني واحبابي بعض اشخاصٍ يترددون في صدق
هذه القضية وكونها موحى بها من الله كتبت الى اعزهم
عندي التماسًا وجيزًا ان يطالع هذا الكتاب بالتأنّي
والاصغاء التام ويمعن النظر في قوة براهينهِ مؤمّلاً
بذلك دفع ارتيابهِ. فورد لي منهُ الجواب بهذه الصورة

قد فهمت عبارتكم عن كتاب دليل الصواب
وبحسب ذلك قد طالعتهُ وتحقق عندي حسن
تعقُّل مؤلّفهِ. فانا من قبل مطالعة هذا الكتاب لم يكن
عندي شك في ان الدين للناس هو خيرٌ من الكفر.
وقد عرفت ايضًا من الكتاب المذكور ان فولتير
ونظراءَهُ ممن يكتبون ضد الديانة هم جهلة لا فلاسفة
كما لا اشكُّ بان الدين هو ضروريٌّ للانسان بما انهُ
يجعلهُ مرتاح الفكر سليم القلب عديم الشر محب
الخير سهل المصالح محبوبًا من الناس متّصفًا بكل
الصفات المقبولة عند البشر. ولكن مع هذا فاني ارجو

عزَّتهُ تعالى ان يعطيني نعمةً ويجعلني اتحقق ايُّ دينٍ من الاديان هو الحق لان كل ديانةٍ تمدح نفسها وتقذف في ما سواها. واني ارى الاديان الشهيرة قريبةً من بعضها جوهريًّا واختلافها انما هو في ما لا نظنُّ ان الله يسال عنهُ

فبعد وقوفي على مضمون هذا الجواب ولو كان يظهر منهُ عدم اقتناع هذا الاخ الحبيب الان املي لم ينقطع من رجوعهِ الى الحق لانني وجدتهُ يطلب نعمة الهداية من الله. وبناءً على ذلك شرعت في وضع هذه الرسالة تنبيهًا لهُ ولامثالهِ من الذين تخطر لهم هذه الاوهام مستمدًّا منهُ تعالى ان يلهمني الصواب فيما اقررهُ ويجعلهُ موَثّرًا في ضماير مطالعيهِ لان كل غرسٍ لا يغرسهُ الاب السموي لا يثبت ولا يثمر. وسميتها بالبرهان على ضعف الانسان. واسالهُ تعالى التوفيق وان يهديني الى سوآء الطريق بمنّهِ وكرمهِ امين

الفصل الاول

في ما يجب على الانسان من حقوق المطالعة عند ما تتقدم لهُ قضيةٌ ضد احكام عقلهِ

ان كثيرين من الناس عند ما يطالعون شرحاً مخالفاً لما استقرَّ في اذهانهم يزدرون بهِ قبل ان يستوعبوا مضمونهُ . وربما يطرحونهُ من ايديهم او يمزقونهُ اعتماداً على صحة ما قد تقرَّر في مخيّلاتهم مع انهُ يمكن ان يكون هو الحق . ولذلك لا يحكمون حكماً عادلاً لعدم اعطائهم ما يطالعونهُ حقَّ المطالعة والتروية في مضمونهِ . ولا ريب ان العاقل يجب عليهِ ان يفتكر بامكان وقوع الغلط منهُ كما يفتكر بوقوعهِ من الاخرين ولذلك ينبغي ان يطالع بالتدقيق التام في فهم ما يطالعهُ وامعان النظر في البراهين الواردة عليهِ من حيث قوتها وضعفها . مع رفع الميل النفساني

والتعصب الوراثي والتمسك بالتقليد. لان ذلك هو السبب في استمرار الجهل بين القبايل والمانع لهم عن حسن التمدن. وينبغي ان يكون المطالع متواضعاً لقبول ما يلوح لهُ فيهِ الحق ولو كان بخلاف تصوراتهِ. وانهُ متى اتضح لهُ عليهِ ادنى دليلٍ يتمسك بهِ ويفحص بالتدقيق عن ملحقاتهِ ومتعلقاتهِ وما ينتج منها. ومتى كان كذلك فغالبًا لا يلبث حتى يرى الحق مشيّدًا تجاه عينيهِ كحصنٍ منيع لا يتزعزع من صدمات اعدآيهِ. واما اذا اصرف نظرهُ عن قوة البرهان اعتمادًا على صحة تصوراتهِ او على ما تقلدهُ عن اسلافهِ فيبقى معتقلاً بسلاسل عبودية الغفلة ورباطات التقليد في سجن ظلام الجهالة

انما نطالع في تاريخ علم الفلك عن المعلم غاليلي الشهير انهُ عند ما قال بحركة الارض بنآءً على ما ثبت عندهُ من البراهين عليها لم يتناول علمآء الديانة

مسئلتهُ كما يحقُّ لها من الفحص المدقق والنظر الاقصى بل سلَّموا انفسهم لما هو قايمٌ في اوهامهم معتمدين على صحة ما يظنونهُ من عصمتهم وصدق ما تقلَّدوهُ عن اسلافهم وما هو واقعٌ تحت حواسهم من رؤية حركة الكواكب الظاهرة وثبوت الارض. فقابلوهُ على حكمتهِ بطرحهِ في السجن توهمًا منهم بان قولهُ هذا يفضي الى الكفر مع انهُ مما يزيد الاعتقاد بعظمة قدرتهِ تعالى. واذ كان الحق نورًا ساطعًا لم يقدروا على اخفآيهِ زمانًا طويلاً حتى اشرقت براهين صدق كلامهِ على ظلمة اوهامهم واضطرُّوا لتصديقهِ والاقرار بفضلهِ وحكمهم عليهِ بغير الحق. فلو كانوا طرحوا عنهم ردآء الكبريآء وتواضعوا في تناول تلك المسئلة كما هو الواجب لمثلها واعطوها حقَّها من الفحص بالتأنّي والتدقيق لكانوا سلموا من التدنس بدم هذا المظلوم ومن الخزي المخلَّد ذكرهُ في التواريخ

عند ما اضطرّوا الى الاقرار بجهلهم ورجعوا الى قول الذي اجتمعوا على مقاومتهِ

وانني اذكّر هذا الاخ بما قررتهُ لهُ مشافهةً سنة ١٨٤٠ عن اختراع صناعة الداغروتيب التي يصوّرون بها الاشخاص بواسطة النور وبعض استحضاراتٍ كيماوية. وهو قد انكر حينئذٍ امكانها ولامني على تصديقي بها حتى برهنت لهُ عن صدق كلامي باحضاري لهُ صورتي المطبوعة بهذه الصناعة. وحينئذٍ اعتقد بصحتها بعد جزمهِ باستحالتها

وهكذا اقول لو ان صدُّوقيًّا قيل لهُ عن قيامة الموتى لكان يصرف ذهنهُ عن تصديقها اعتمادًا على التقليد والمشاهدة وما يتصل اليهِ ادراكهُ من كونهِ لم ينظر قيامة ميتٍ. وبمقتضى هذه الدلايل السخيفة يحكم بان ذلك امرٌ مستحيل. ولكن لو تواضع وافتكر بقصور معرفتهِ عن ادراك الامور الفايقة على عقول البشر

وامعن النظر في كيفية وجودهِ من العدم. او كيفية نبات البزور بعد موتها في الارض وكيف تنمو بعد ذلك وتثمر. وتأمَّل في بزرة الحرير كيف تصير دودةً ثم تصير جيزًا ثم تصير طايرًا الكان يرى قيامة الموتى من الممكنات. نعم ان ذلك امرٌ عجيب ولكن بالنسبة الى قدرة الانسان لا بالنسبة الى قدرة الخالق الذي اوجد الكاينات واعطاها القوانين العجيبة التي تتكرر حوادثها على حواسنا كل يومٍ وكل لحظةٍ وليس شيءٌ منها تحت استطاعة قدرتنا. وفي هذا كفايةٌ لاقناعنا بوجوب التدقيق والتروية في فحص ما يعرض على حواسنا قبل ان نحكم عليهِ سلبًا او ايجابًا فربما كانت حقيقتهُ على غير ما ظهرت لنا

الفصل الثاني

في ان القوة العقلية الحاكمة في الانسان لم تبلغ الى درجة الكمال ولهذا يخطي احياناً كثيرة في احكامهِ

ان الخطأ في الحكم على الاشياء من حيث الجودة والرداءة لا يكون من عدم امعان النظر فقط كما تقدم بل قد يكون ايضاً من ضعف القوة العقلية الحاكمة التي يظهر لنا انها موجودة في النوع الانساني على وجهٍ اتمّ وافضل مما هي في بقية انواع الحيوان. ومع تفاضلها في افراد البشر لا يمكن بلوغها الى رتبة الكمال في احدٍ من الناس مهما اجتُهِد في تقويتها بالعلوم والوسايط. بل لا بد من ظهور نقصها ظهوراً واضحاً عند الاختبار ولذلك يخطي الانسان كثيراً في احكامه

واذا نظرنا في ما يرد على الانسان من الاضرار

نجد ان كثيرًا من ذلك قد صدر من فساد احكامهِ العقلية عند ما يحكم بجودة الشي مع كونهِ رديًّا في نفسهِ. كمن يحكم بجودة استعمال المسكرات مثلاً اعتمادًا على اجتلابها للسرور ويصرف النظر عن ملحقاتها فيخسر صحة جسمهِ وحسن صيتهِ ويربح الفقر والعار المهين بين الناس. وهكذا من يحكم بصلاح ديانةٍ ما بناءً على ما يراهُ من اوامرها بعبادة الباري تعالي واقرارها بوحدانيتهِ وكونها تامر بالبرّ وتنهي عن الفحشآء. ويصرف نظرهُ عن البحث فيما تدخلهُ تحت اعمال البر كمقاتلة مخالفيها وسلب اموالهم او سفك دمآئهم. او ما تدخلهُ تحت الفحشآء كعمل الرحمة او النصيحة او المحبة او الاكرام نحو مخالفيها. فيسقط في ما هو اشدُّ من الكفر باعتقادهِ ان الخالق الرؤوف يطلب من البشر عبادةً مثل هذه. وهكذا من يعتقد في نفسهِ حسن الفطنة وسمو المعرفة لانهُ قد ادرك بعض

العلوم. ولذلك يزدري بمن يراهُ ليس من اربابها ويحكم لنفسهِ بالفضل على غيرهِ ويريد ان يخضع جميع التصرفات البشرية لارآئهِ فيسقط في رذيلة الكبرياء التي لا تحتاج الى برهان على حماقة المتّصفين بها

واذ كان يستحيل على النوع الانساني بلوغ مرتبة الكمال كان اول واجبٍ على العاقل ان يعلم ضعفهُ وقصور معرفتهِ. ويعتقد انهُ بحسب مبلغ قواهُ العقلية ولو كانت في اعلى الدرجات عاجزٌ عن ادراك حقايق الاشياء كما هي في ذاتها وان غاية ما تحت امكانهِ انما هي ادراك الاشياء بحسبما تبديهِ لهُ ظواهرها الحاليَّة. كالطبيب الذي يدرك ان هذا الدواء حارٌّ او باردٌ بحسب مزاجهِ. فان معرفتهُ هذه قد نتجت مما تقرَّر عندهُ من الظواهر بالتجربة فقط ولكن لا يمكنهُ ان يعرف المعرفة الحكمية لماذا كان كذلك. او كالكيماوي الذي يدرك قوانين الاتحاد الكيماوي

بين الاجسام المختلفة. فان غاية ادراكهِ ان يعرف ما قد ظهر لهُ من حوادث هذا الاتحاد كاتحاد الزيوت بالقَلَويَّات مثلاً او المغنيسا بالحوامض بمقادير معلومة او ان الحامض البارودي يحلُّ الفضة دون الذهب الى غير ذلك من الاعمال الكيماوية ولكنهُ لا يدرك العلَّة فيها ولا كيفية الحدوث على هذا الوجه المخصوص. وهكذا بقية العلمآء في المحسوسات كالطبيعي مثلاً الذي يعرف ان المادَّتين الكهربآئيتين الزجاجية الموجبة والراتينجية السالبة تتباعدان عند اجتماعهما في الاجسام وتتقاربان عند اختلافهما ولكنه يجهل الحقيقة الحكمية في ذلك. او الفيسيولوجي الذي يعترف بكون صور المُبصَرات تنطبع في الاعين معكوسةً ولا يقدر ان يبرهن لماذا نراها مستقيمةً

وحينئذٍ يمكن ان يقال لهم اجمعين انكم تجهلون العلم الحقيقي. والذي عرفتموهُ فقد استنتجتموهُ من

حوادث الطبيعة الظاهرة لكم بطريق العادة المألوفة
مما يقدر كل انسانٍ ان يعرفهُ عند روية وقوعهِ امامهُ .
ولكن لا تصلون الى المعرفة الحكمية بان تدركوا
حقايق الاشياء كما هي في ذاتها . فغاية ما يقال انكم
مورخون لحوادث الطبيعة او مطالعون لتاريخها
لا عارفون بحقايقها من حيث هي كما يُظَنُّ

الفصل الثالث

في ايراد براهين على قصور عقل الانسان عن ادراك حقايق كثيرة وان ذلك لا يستلزم نفيها

ان غاية ما يتصل اليهِ علم الانسان بعد افراغ جهدهِ انما هو ادراكهُ لجهالتهِ بحقايق الموجودات وان ادراكه لاعمال الله لا يخلو من مشابهة بادراك البهايم لاعظم اعمال البشر. فانها ترى الابنية المشيدة والسفن السارية والاثواب المنسوجة وتسمع الالحان المنتظمة الى غير ذلك ولكن لا تدرك كيفية اصطناعها. ولا يكون جهلها بما تراهُ منها مستلزمًا نفي وجودها او وجود صانعها. لان عدم معرفتها لم يكن من عدم وجود الاشياء بل من سموّها عن رتبة ادراكها

وهكذا الانسان اذ كان عقلهُ قاصرًا عن ادراك حقايق الموجودات وكيفية اعمال الله وكانت هذه غاية

ما تصل اليهِ معرفتهُ في ما يقع تحت حواسه فلا يليق بهِ ان يتمسك بما يوهمهُ قصر ادراكهِ في الاشياء الروحية ويقف عندهُ. بل يجب عليهِ التصديق بوجود ما يفوق رتبة معرفتهِ. فيقرُّ بانهُ ولو فاق ما اعلنه الله للناس ادراك عقلهِ ملتزمٌ بتصديقه اعتماداً على الانبياء والرسل الذين لم ينطقوا الا بالهامهِ تعالى. وقد اثبتوا صدق تعاليمهم ببراهين عمل المعجزات التي لا يقدر الكافر على انكارها متعللاً بتقادم عهدها وامكان دخول الغفلة على مشاهديها او عدم الثقة بصدق المخبرين بها. وببراهين صدق النبوات التي قد شوهد تمام كثيرٍ منها طبقاً لما كُتِب قبل حدوثها باجيالٍ كثيرة مما ليس في طاقة البشر معرفتهُ قبل وقوعهِ

ولا سبيل لهُ ان يقول لماذا لم ادرك هذه الحقايق الروحية مع معرفتهِ ان الانسان قاصرٌ بالطبع عن

اعطاءَ الحكم الصايب فيها لسمو شانها . اذ لو كانت مما نستطيع ادراكهُ لم نكن محتاجين الى وحيٍ الهي يخبرنا عنها ولا كان اقتضى الحال ارسال رسلٍ يبرهنون صدق مقالهم عنها بعمل المعجزات الفايقة على الاطوار البشرية . ولاسيما اننا نرى انفسنا عاجزين عن تحقيق كثيرٍ من الاشياءَ الواقعة تحت حواسنا حتى اننا نجهل انفسنا التي هي اقرب الاشياءَ الينا ولا نستطيع ان ندرك ماهية شعرةٍ من شعر رؤوسنا

وكيف يمكن انكار ذلك مع ظهور ضعف حواسنا عن ادراك اشياءَ كثيرة مما تدركهُ البهايم التي هي دوننا . فاننا نرى اكثرها تدرك ما يضرُّها وينفعها من الاغذية والاشربة بحاسةٍ غريبة جدًّا عن ادراكنا لاننا لا نعرف ذلك الا بالتجربة . فان الفارة الصغيرة عند اول مرةٍ تنظر السِنّور تهرب منهُ واما الانسان فاذا لم يعرف فعل العقرب بالتجربة يمسكهُ بيدهِ . ونرى

الطاير يدرك المنظورات على بعدٍ عند ما لا نستطيع ان نراها ابدًا . والكلب يدرك من الروايح الخفيّة ما لا ندرك لهُ اثرًا بالكلية . وما ذاك الا لضعف حواسنا

واذا امعنّا النظر في امتداد الظل او قلوصهِ تدريجًا لا ندرك منها شيئًا في وقت حدوثهِ ولا نشعر بهِ الا بعد حينٍ عند ما نراهُ قد انتقل بعيدًا عن مكانهِ . ومن المعلوم انهُ لم ينتقل دفعةً واحدة بل بالتدريج . وحينئذٍ نحكم على انتقالهِ بقوة العقل . وهكذا يجري الامر في نمو الحيوان والنبات التدريجي الذي نعجز عن ادراكهِ بابصارنا . وكذلك الاجسام المقذوفة بشدةٍ كالرصاص الذي يدفعهُ البارود فاننا لا نراها ولو مرّت تجاه اعيننا . والكواكب تسير في افلاكها باسرع من ذلك اضعافًا كثيرة ونراها كانها ثابتة في مراكزها لا تتحرك . وكذلك قد شُوهِد بواسطة النظّارات كواكب في السماءِ لا عدد لها . وفي الماءِ

حيواناتٌ صغيرة تعجز عقول البشر عن إحصآيها. وجميعها لا تقدر حواسنا على ادراكها لولا الاستعانة بالآلات التي لو لم يتصل الانسان الى اختراعها لكانت هذه المنظورات لم تزل مجهولةً منا كغيرها مما نظنهُ الى الان مجهولاً ايضاً عندنا. ولذلك لا يكون عجز حواسنا عن ادراك هذه الاشياء حجةً على نفي وجودها

وإذا كانت حواسنا الظاهرة احياناً كثيرة لا تفيدنا معرفة حقايق الموجودات لقصورها عن ادراكها ونحتاج الى حكم العقل في تحقيقها فهل يكون امرًا عجيبًا اذا كان يوجد هذا القصور نفسهُ في وظيفة العقل عن ادراك الامور الروحية السامية. وان يكون حكمهُ فيها غير صحيح اما لعجزهِ عن الوصول اليها لضعفهِ لا لعدم وجودها كما تقدم مثالهُ في ما يراهُ الطير ويشمهُ الكلب وتدركهُ النظَّارة. واما

لغشاوةٍ تعلوهُ كالاعتماد على التقليد والاعتداد بالنفس وهذا يكون كالرمد في الاعين السليمة.

واما السبب اعتقال النفس في سجن الجسد الذي كثافتهُ تمنع ابصارها عن ادراك هذه الاشياء السامية على حقايقها كالزجاجة ذات اللون التي تُرَى الاشياء من ورآيها متلونة بلونها فاذا انفردت عنها تظهر الوانها الحقيقية. وهكذا النفس متى أُطلِقَت من سجنها تري الاشياء على حقيقتها. ولنا على ذلك مثالٌ مما يراهُ الانسان من الاحلام ويحكم العقل بتصديقهِ وهو في حالة النوم. ولكنهُ عند اليقظة يظهر لهُ فساد ما كان قد حكم بصحتهِ. وما ذلك الا لكون العقل في حالة النوم مقيدًا عن اتمام وظيفتهِ كالواجب فيرى الاشياء على غير حقايقها ويحكم عليها بحسبما ظهرت لهُ. وعندما يحصل على حرّيتهِ يراها على قدر ما كان لهُ من القوى الطبيعية

وبما ان الاخ المشار اليهِ من المتروّضين في الاصول الهندسية والحسابية اردت ان ابرهن لهُ على قصور ادراك الانسان بايراد بعض مسائل من هذا الفن مما تعجز البشر عن معرفتهِ مع كونهِ موجودًا وغير مستحيل ولو كانت هذه المسائل غير مجهولةٍ منهُ.

فاقول لماذا نعجز عن تحصيل كمية جذر العدد الاصمّ بالتحقيق الذي لا ينبغي ان يكون مجهولاً منا. اما الدعوى بعدم وجودهِ لكونهِ اكثر من جذر المجذور الصحيح الذي دونهُ واقلّ مما فوقهُ ولذلك يكون عددًا صحيحًا مع كسرٍ. وان مربّع ما فيهِ الكسر لا بد من وجود الكسر فيهِ فهذه مردودةٌ وليست الا كقول القايل

كاننا والماء من حولنا قومٌ جلوسٌ حولهم ماءُ

لان الجذر الحقيقي هو موجودٌ في ذاتهِ والموجود لا يستحيل وجودهُ. اذ لو رسمنا خطًّا على وتر زاويةٍ قايمةٍ

مجموعُ مربّعَي ضلعيها غير مجذورٍ بان يكون احدهما ثلثةً والاخر واحدًا مثلاً لكان الخط المرقوم جذر عشرةٍ ثلثةً معلومةً مع كسرٍ مجهول. وهكذا لو جعلنا هذا الخطّ نفسهُ وترًا لزاويةٍ قايمة متساوية الساقين لكان كلٌّ منهما اثنين معلومين مع كسرٍ مجهول. وحينئذٍ يُجهَل عندنا كمية كلٍ من اضلاعها الثلثة مع اننا نعلم يقينًا ان مساحة سطح هذه المثلثة هو اثنان ونصف

وبناءً على ذلك اقول كيف يجيز حكم العقل ان الخطوط المرسومة في الخارج تجاه اعيننا تعجز فلاسفة العالم قاطبةً عن قياسها ولا يمكنهم نسبة كسرها الى المقياس المفروض واحدًا ولو مهما اخترعوا لهُ من المخارج. فلو قيل هذا لمن يجهل الاصول الهندسية لتوهم ان عجز الفلاسفة عنهُ امرٌ مستحيل. ولم يصدّق قطُّ ان يوجد ثوبٌ اوخيط يعجز جميع البشر عن

ادراك كمية ذرعهِ بالتحقيق حال كونهِ امام اعينهم وملموسًا بايديهم

واقول مثل هذا في الخط المفروض واحدًا اذا نُصِّف ثم نُصِّف نصفهُ وهلمَّ جرًّا الى نهاية الخط التي لا ريب في وجودها . فان كمية جميع الاقسام هي واحدٌ معلومٌ باليقين ان اولها نصفٌ وثانيها ربع وثالثها ثمن وهلم جرًّا . ولا يمكن معرفة القسم الاخير منها حال كونهِ موجودًا بالضرورة ومنتهيًا بنهاية الخط المعلومة . فان قيل انهُ نقطةٌ هندسية فذلك مردودٌ لاستلزامهِ مساواة القسم الذي قبلهُ . فاذا رجعنا القهقرى يكون مجموع الخط نقطةً والحال انهُ واحدٌ

وماذا عسى يمكنني ان اقول عن قضية الجوهر الفرد التي لم تتفق عليها عقول الفلاسفة . والى الان بعضهم ينكرهُ وبعضهم يثبتهُ . وكل فريقٍ يبرهن على صدق دعواهُ بما يحكم العقل بصحتهِ . ولم يوجد

وجهٌ لنفي احدهما نفيًا قاطعًا. لان من يثبتهُ يبرهن عليهِ بالنقطة الهندسية او راس الزاوية مثلاً. ومن ينكرهُ يبرهن بقبول كل موجودٍ هيوليّ للقسمة. وانهُ لو حُصِر بين جسمين لَقابَل احدهما بوجهٍ لا يقابل بهِ الاخر. والعقل الانسانيُّ يجيز تصديق كلٍ من القولَين مع تناقضهما حال كون قسمة الحق مستحيلةً في ذاتها

واذا تقرر عجز الانسان عن ادراك حقايق اشياءَ كثيرة مما هو واقعٌ تحت حواسهِ فهل يليق بهِ ان يتفلسف على الامور الروحية السامية فوق ادراك جميع المخلوقات ويقول يجب ان يكون هذا كذا وذاك كذا. ولا يذعن بجهلهِ لحكمة خالق الكاينات الذي أفاض عليهِ جزءًا من قوة الادراك لا لكي يتفلسف بهِ عليهِ ويعلّمهُ كيف يصنع وكيف يحكم بل لكي يعرفهُ بهِ ويتعلم منهُ كيف يعبدهُ وماذا يجب عليهِ لله ولقريبهِ

ولا يُجهَل الان عند ذوي المعارف عظم اجرام الكواكب وان الارض كوكبٌ صغيرٌ سيَّارٌ من جملة المتحيرات التي تدور حول شمسنا. وقد كان ذلك مجهولاً عند قدماءَ الفلاسفة. حتى انهُ في عصرنا يوجد من العقلآءَ من ينكر هذه الحقايق الثابتة لعدم وقوفهم على براهينها. فالجهل بها في ما مضى وعند البعض في جيلنا الحاضر لا ينفي وجودها ولا يكون برهانًا على نفي ما تقرر عند علمآءَ عصرنا

فمَّا تقدم بيانهُ يتبرهن جليًّا قصور الادراك البشري وعجز العقل الانساني عن تحصيل كثيرٍ من الحقايق. وان ما يقصر عقل الانسان عن ادراكهِ لا يلزم ان يكون باطلاً في ذاتهِ ولا يحق لنا انكارهُ بحجة قصور ادراكنا عن معرفتهِ الا اذا كان مستحيلاً في ذاتهِ وبهذا كفاية

الفصل الرابع

في ان اجتماع عقول البشر لا يزيد مقدارها ولذلك لا يجعلها تدرك ماكان فوق القوة المفروضة من الخالق لانسانٍ واحد تام الخلقة

ان اجتماع عقول الكثيرين لا يعطي قوةً لتحصيل الحقايق التي معرفتها فوق غاية قُوَى الادراك الممنوحة من الله للنوع البشري. لانهُ سبحانهُ وتعالى قدَّر لكل حيوانٍ درجة من العقل تناسب حالهُ وفضَّل الانسان على جميعها ولكن لم يبلّغهُ درجة الكمال لانها مختصةٌ بذاتهِ القدوسة. واذ كانت قُوَى حواسهِ منبعثة عن مصادر مستقلّة لا اشتراك فيها لم يكن اجتماعها مفيدًا لتقوية ادراكها. فلا يمكننا ان نرى بالعينين ضعف البعد الذي نراهُ بالعين الواحدة. ولا يمكن الرجال الاربعة ان يسمعوا باجتماعهم مقدار

ما يسمعهُ الرجل الواحد اربع مرات. وهكذا نقول في اجتماع العقول ان غاية ما يستفاد منهُ هو تحصيل ما يقصر عنهُ ادراك البعض الذين قوة عقولهم في مرتبةٍ ادنى من المرتبة المفروضة للانسان التام الانسانية. كما لو اجتمع الناس لرؤية الهلال مثلاً فربما يراهُ بعضهم دون البعض الاخر بشرط كونهِ في بعدٍ عن الشمس تمكن فيهِ رويتهُ باعين البشر السليمة والا فلا فايدة من هذا الاجتماع. فتكون غاية ما يجتمعون اليهِ انما هي تحصيل غاية ما يقدر الانسان على معرفتهِ مما كان القصور فيهِ ليس من جهة عدم امكانهِ بل من جهة قصور بعض الناس عن درجة الادراك الانساني التي كان يمكن وجودها فيهم

فاذًا تحصيل البعض لما يجهلهُ غيرهم لا يبرهن امكانية ادراكهم لجميع الحقايق حتى ولا يبرهن ادراكهم لكل ما يمكن غيرهم ان يدركهُ. سوآء كان في القضية

الواقع فيها البحث ام في غيرها. كما ان قصور البعض عن تحصيل كل ما ادركهُ غيرهم لا يبرهن وجوب رفض ما لم يقدروا على ادراكهِ

هذا وان الانسان مع تمادي الاجيال قد امكنهُ ان يستنبط آلاتٍ كثيرة. منها لتقوية وظايف حواسهِ الحيوانية. ومنها لمضاعفة قواهُ العضلية ليتمكن من رفع الاثقال التي لم يكن في طاقتهِ حملها. فاخترع لمساعدة البصر الزجاجات المحدَّبة الجامعة للاشعة الضوئية والمرآءي المقعَّرة. واستعان بها على روية الاجرام البعيدة كالكواكب والاجسام الصغيرة جدًّا مما لا يمكنهُ ادراكهُ بمجرَّد قوى ابصارهِ الطبيعية. واستنبط لمساعدة وظيفة السمع الاسطوانات المجوَّفة المسمَّاة بالقُرَين السمعيّ الجامعة للتموُّجات الهوآئية الحادثة من فعل الاشياءَ المصوّتة ليستعين بها على ادراك الاصوات الضعيفة والبعيدة التي لا نتاثر منها

حاسة السمع لخفّتها وضعفها. واخترع لرفع الاثقال آلاتٍ كثيرة حتى صار يرفع بواسطتها اثقالاً عظيمة جدًّا يكاد يخرج تصديقها عن دايرة العقل. ولا يسعنا تعداد الاختراعات التي استنبطها الانسان للمساعدة على اعمالهِ فنكتفي بما ذكرناهُ

فهذه الاختراعات جميعها قد استعان الانسان على استنباطها بواسطة قواهُ العقلية. واما قوة التعقل نفسها فلم يكن في طاقتهِ ان يخترع آلةً لمساعدتها لكي يقدر بواسطتها ان يجعلها تدرك ما لا يقدر العقل وحدهُ على إدراكهِ فغاية ما امكن لمساعدتهِ هو استعمال الرياضة والتمرين بتعليمهِ ما قد تعب الغير في تحصيلهِ. وهذا انما هو كالكحل للعين يجلو الصدأ المتلبّس بهِ او يزيل الاعراض الطارية على جوهرهِ. او كترويض الحواس باستعمال وظايفها. وجميع ذلك يفيد ان ذاك العضو يتم افعال وظيفتهِ كما يجب على مقدار ما

كان فيهِ من القوى الطبيعية لا انهُ يعطيهِ قوةً حديثة تفيدهُ الزيادة على الحد الطبيعي المفروض لهُ من الخالق

واذ كنا محتاجين الى واسطةٍ نرفع بها عقولنا الى رتبةٍ نستطيع بها ادراك ما فوق هذه العقول اعطانا الباري تعالى كتبهُ المقدسة التي ليست كنظّارة المعلم هرشل ترينا الكواكب البعيدة فقط بل بواسطتها تخرق ابصار عقولنا اعلى طباق السموات وتدرك ما فوقها من السعادة والمجد وتسمع آذاننا تسابيح المليكة وشرايع الله واحكامهُ العميقة. وكما يستحيل على قوى ابصارنا ادراك الكواكب البعيدة ما لم ننظر اليها بالنظّارات الفلكية هكذا يستحيل على عقولنا ادراك احكام الله والمجد السموي على الحقيقة ما لم ننظر اليها من الكتب المقدسة التي لم تُصنَع بايدي هرشل ولا غيرهِ من البشر بل بيد الله الذي وضعها لنا آلةً وحيدة ليمكننا ان نراهُ بواسطتها

الفصل الخامس

في ان عدم مطابقة بعض مراسيم الديانة لاحكام العقل البشري لا ينفي صدقها

انهُ قد تبرهن في ما تقدم عجز العقل البشري عن ادراك جميع الحقايق وان كثيرًا مما هو تحت حواسنا لانستطيع ادراكهُ لا بسبب عدم وجودهِ بل لضعف حواسنا عن تحصيلهِ. ولما كان العقل البشري في حالة التوسط اللايق بهِ كان ادراكهُ لبعض الحقايق مما هو تحت حواسهِ لا يستلزم ادراكهُ لجميعها. كما ان جهلهُ ببعضها مما هو فوق استطاعة الحواس لا يستلزم جهلهُ بكل حقيقةٍ

فقضية وجوب الديانة هي مما في طاقة عقول البشر ادراكها كما هو في طاقتهم ايضًا ان يميزوا صحيحها من فاسدها. واما كيفية العبادة التي يرتضيها الله

منهم فهذه لم تكن معرفتها في طاقتهم اذا لم تُعلَن لهم بوحيٍ الهي. اما كون وجوب الديانة هو مما في طاقة البشر ادراكهُ فذلك لانها تتضمن جوهريًّا الاقرار بوجود الصانع وحكمتهِ ووجوب عبادتهِ ومحبتهِ ومحبة القريب. فوجود الصانع وحكمتهُ يتضحان بدلايل كثيرة اظهرها دليل الاثر على المؤثّر لاننا نرى الكاينات المتقنة التي يستحيل وجودها على هذه الصفة بدون صانعٍ حكيم. ومن كان كلّي الحكمة والقدرة تجب عبادتهُ ومحبتهُ. وكذلك محبة القريب فان العقل السليم يدل عليها بان نعاملهُ بما نريد ان يعاملنا بهِ. واحتياجنا الى مخالطة بعضنا يوجب ذلك اذ لا تتيسّر لنا الراحة في هذا الاجتماع بدون الاتفاق الناتج عن المحبة. ومن ثَمَّ نصير محتاجين بالضرورة الى تقديم المحبة نحو القريب. واما كون الانسان يستطيع ان يميز صحيح الشريعة من فاسدها فهذا قد

افردت لهُ فصلاً مستقلاً بعد هذا. واما عدم قدرتهِ على ادراك كيفية العبادة التي يرتضي الله بتقدمتها لهُ فذلك ظاهرٌ لانها مختصةٌ بهِ تعالى لا بالبشر. فان الانسان ولو كان قد عرف الخالق جل شانهُ وعلم انهُ كلّي الحكمة والصلاح لم تزل معرفتهُ قاصرة جدًّا عن ادراكهِ كما هو في ذاتهِ بالحقيقة. واذ كانت معرفة الانسان قاصرة عن ادراك تمام صفات الله الذاتية لا يتأتّى لهُ ان يدرك كيفية العبادة اللايقة بجلالهِ تعالى على ما ينبغي. ولهذا كانت العبادات المرسومة في الكتب المقدسة ولو كان يظهر لضعف الانسان ان بعضها لا يوافق احكام عقلهِ لا ينتج منها عدم صدق الديانة لان العبادة ليست من القضايا الموضوعة تحت حكم ما يبلغهُ قصر ادراك البشر

واضرب لذلك مثلاً بقضايا كاينة تحت حواسنا ونحن نعتقد صدقها مع كونهِ مضادًّا لما يحكم عقلنا

بصحتهِ. وهي مما نعلمهُ من طرق معالجة المرض الجلدي المسمَّى بالحزاز. فانهُ مع كونهِ مرضًا التهابيًّا نراهُ يبرأُ بوضع الكاويات عليهِ. وذلك مغايرٌ بكليتهِ لاحكام قوانين الطب المعقولة التي تحكم بمقاومة الالتهاب بضدهِ لان المعهود ان الكاويات تُحدِث الالتهاب في العضو الذي تلامسهُ لاتزيل الالتهاب عنهُ. وهكذا يقال في الرمد الالتهابي انهُ يزول كثيرًا بوضع محلول الحجر الجهنمي في العين. ومع كون هذه القضايا مما هو تحت حواسنا ويحق للعقل ان يحكم بها قد وجدنا مكنونات الطبيعة رسمت علينا حكمًا صادقًا للعيان مغايرًا لما يقضي بهِ العقل البشري في ما لا يسعنا انكارهُ ولم نقدر على ادراك العلة الحكمية في ذلك

واذ كان للطبيعة المخلوقة احكامٌ صادقة ولا بد ان تكون هي الحق لثبوت نفعها بالتجربة وهي لاتطابق

احكام عقولنا فلا يكون امرًا بعيدًا اذا كان لخالق الطبيعة احكامٌ تخالف ما يقضي بهِ ادراكنا وتكون هي الحق في ذاتها . ولهذا يجب على العقل ان يصدق كل ما رسمهُ الله تعالى في شرايعهِ ولو ظهر لهُ في بعضها ما لا يطابق احكام عقلهِ . لان الانسان عاجزٌ بالطبع عن ادراك العلة الحكمية في ذلك اكثر من عجزهِ عن ادراك ما دونها مما اوضحناهُ

الفصل السادس

في ان التميز بين صحيح الديانة وفاسدها هو مما في طاقة الانسان

قد وعدت في الفصل السابق بافراد فصلٍ مستقلٍّ للكلام على هذه القضيَّة فاقول اننا اذا اردنا البحث عن التمييز بين صحيح الديانات المستقلَّة وفاسدها نلتفت اولاً الى كتبها الموثوق بها من اصحابها انها من الله. فنسأَل هل هي مزوَّرة ام مكتوبة من الاشخاص الذين اشتهرت نسبتها اليهم. وهل هي كاذبةٌ في الحوادث التي تخبر عنها ام صادقةٌ فيها حتى يُوثَق بها من دون ريبٍ. والبرهان على ذلك يشبه البرهان الذي تقدمهُ على صدق بقية الكتب او كذبها مشابهةً تامَّة. فلا بد ان يكون الحكم فيهِ هو مما في طاقة الانسان. ولنا في هذا البحث ان نقابل ما

تتضمنهُ هذه الكتب بما نتعلمهُ عن الاخبار والمبادي الفلسفية الراسخة من كتبٍ ووسايط اخرى. فان وجدنا كتابًا من هذه الكتب يحتوي على قصص او تعاليم تنكرها اخبار التواريخ الصادقة او احكام الفلسفة الطبيعية المثبتة لم يمكننا ان نثق بهِ. ولكن ان كان كل ما نتعلمهُ جديدًا عن الحوادث التاريخية من كتب اقدم الطوايف مثلاً او من خطوطٍ منقوشة على حجارةٍ في هياكل المصريين القدماء او مكتوبة على صخورٍ تُستخرَج من ردم مدن الاثوريين المطمورة الى غير ذلك نجدهُ يثبت اخبار هذا الكتاب ولا يوجد شيءٌ في احكام احدث العلوم المتقررة يخالف تعليمهُ فتزداد ثقتنا بهِ جدًّا. وهذه بعينها هي حالة الكتاب الذي يؤْمن المسيحيون بانهُ من الله. وليت شعري هل يصدق هذا الكلام على كتابٍ اخر

ثم اذا تحققنا صدق الكتاب فنبحث باكثر تدقيقٍ

عن حقيقة ما يتضمنهُ من الاخبار والتعاليم. فان وجدنا فيهِ نبواتٍ مكتوبة قبل تمامها باجيالٍ ثم تمّت حرفياً عن يد اناسٍ لم يقصدوا ذلك او لم يعرفوها اصلاً نحكم بان هذه النبوات قد صدرت لامحالة من الله. لانهُ وحدهُ عزَّ وجلَّ يعرف المستقبل. وهكذا ان وجدنا فيهِ معجزاتٍ تفوق قوى الطبيعة بالكلية او تناقض قوانينها جليًّا نحكم ايضاً ان الله قد صنعها. لانهُ وحدهُ يقدر ان يغيّر او يبطّل الاوضاع التي جعلها للخليقة. ثم اذا وجدنا ان الذين نطقوا بهذه النبوات وصنعوا هذه المعجزات هم انفسهم كتبوا الكتاب وادَّعوا ان كل ما كتبوهُ مؤيَّدٌ بسلطان الله وان التعاليم هي تعاليمهُ تعالى نحكم بان ذلك الكتاب انما هو كتاب الله. لانهُ تعالى لا يسلّم لاحدٍ نبوةً ولا يمكّنهُ من اجراءِ معجزةٍ بحيث يُعطى تأييدهُ للكذب. وهذا هو نفس التعليل الذي يصدق على

الكتاب المقدس ويبيّن انهُ مؤيَّدٌ بسلطانٍ الهي. وجميع هذه البراهين واضحةٌ لا تفوق طاقة الانسان اكثر من البراهين التي تقنعنا في الامور المتعارفة. واين نجد كتابًا اخر مستندًا على براهين مثلها

ثم ان لنا ان ننظر الى تاثير الديانات في الاشخاص والشعوب المتدينة بها. اما من جهة الاشخاص فنسأَل ايُّ ديانةٍ تجعل اصحابها يجتنبون الفواحش ويكونون صادقين امناء في كلامهم ومعاملاتهم. ومحبّين ومحسنين ليس لاهل ديانتهم فقط بل لجميع الناس. ومتشبهين بالله الذي هو كاملٌ في الطهارة والصدق ويشرق شمسهُ على الاخيار والاشرار. فاننا ننتظر صدور جميع ذلك من ديانةٍ قد صدرت من الله. وهذا هو نفس تاثير ديانة المسيح في الذين يشربون روحها بالحقيقة. واين تجد غيرها يصدق عليهِ هذا الكلام. نعم ربما

يوجد بين المسيحيين الذين نعرفهم اناسٌ كثيرون لم يظهر فيهم هذا الاثر الصالح. ولكن يكون سبب هذا القصور هو تركهم الكتاب المقدس مع اتخاذ وصايا الناس مكانهُ او التغافل عن واجبات الديانة بالكلية كما هو حال اكثر المسيحيين في بلادنا. واما من جهة الشعوب فما اعظم البركات التي منحتها الديانة المسيحية للممالك التي تبعتها. فانها كانت قبل ذلك برابرة متوحشة فتقدمت في التمدن شيئاً بعد شيءٍ حتى فاقت على غيرها في كل ما يأول الى خير شعوبها من جهة تعليم عموم اولادهم ما يحتاجون اليهِ من معرفة الكتب والتقدم في المتاجر والصنايع التي تكتسب لاربابها الاموال الجزيلة ونمو العلوم السامية يوماً بعد يومٍ. وهذه الممالك في درجاتٍ مختلفة من ذلك ولكن ترى كلَّ واحدةٍ منها تمتدُّ قوتها وسطوتها ويتقدم شعبها في الراحة

والنجاح على قدر شدة تمسكهِ بتعاليم هذا الكتاب. فهل ترى فوق طاقة العقل السليم ان يفهم من ذلك ان الكتاب الذي تتبعهُ خيراتٌ مثل هذه يحتوي على بركةٍ تشهد بانهُ صادرٌ من الله

هذا اذا كان البحث عن التمييز بين الديانات المستقلَّة. ولكن اذا كان عن مذاهب ديانةٍ واحدة كمذاهب الديانة المسيحية المختلفة فنقول ان اكثر ما اختلفت عليهِ هذه المذاهب يتعلق بقضايا ليس لها ذكرٌ في الكتاب المقدس. وهل يعسر على العقل البسيط ان يحكم بان جميع ذلك خالٍ من سلطانٍ الهي فلا يكون قبول شيءٍ منهُ من باب الواجب. ولكن اذا كانت القضايا المُختلَف عليها مذكورةً في الكتاب المقدس فعلينا ان نبحث عن معنى هذا الكتاب كما نبحث عن معنى غيرهِ باستعمال الوسايط المعتادة. والشرط الاعظم حينئذٍ ان تكون النية

مستقيمةً والعقل خاليًا من التعصب لان التعاليم الاهمّ في الكتاب المقدس قد ذُكِرَت مصرَّحةً ويفهمها بسهولةٍ ابسط العقول

واما قول الاخ المشار اليهِ ان اختلاف الاديان هو فيما لا نظنُّ ان الله يسأَل عنهُ فلنا عليهِ كلامٌ مختصر يُظهِر ما فيهِ من الغلط. ونحن في ذلك لا نلتفت الى قضية وجود الله ولا الى توحيدهِ ولا الى وجوب المحبة والطاعة لهُ وما اشبه ذلك مما تشترك فيهِ اديارٌ مختلفة. بل ننظر الى القضية العظيمة الممتازة بها ديانة المسيح عن جميع الديانات الاخرى وهي قضية الفداءَ اي الخلاص من الخطية بواسطة موت المسيح. ولا ريب ان مثل هذه القضية امرٌ جوهريٌّ يحق لهُ الاعتبار العظيم من جميع الخطاة الذين نحن منهم. فان بولس الرسول الذي زادت اتعابهُ عن اتعاب جميع الرسل قد حسبها مهمَّةً بهذا

المقدار حتى انهُ لم يرد ان يكرز بشيءٍ اخر غير يسوع المسيح مصلوبًا. وبطرس الرسول وهو اسيرٌ امام مجمع اليهود صرَّح بان ليس بغيرهِ خلاصٌ لانهُ لا يوجد اسمٌ اخر تحت السماءِ نخلص بهِ. ويوحنا السابق قال مشيرًا اليهِ هوذا حمل الله هوذا الذي يرفع خطية العالم. ويسوع نفسهُ قال عند موتهِ انهُ لاجل تلك الساعة اتى الى العالم. وقال ايضًا انهُ لا ياتي احدٌ الى الآب الا بهِ. والآب بصوتهِ من السماءِ شهد انهُ ابنهُ الحبيب الذي سرَّ بهِ وامر الناس ان يسمعوا لهُ.
وبالجملة اننا اذا اتبَّعنا العهد الجديد لكي نستخلص منهُ قضية تعليمهِ الجوهرية التي يرجع اليها ويتعلق بها جميعهُ نرى انها هي قضية الفداءِ بموت المسيح. فان الرسل علَّموها في كل ما كتبوهُ. والمسيح اشار اليها انها هي الغاية التي لاجلها ترك المجد الذي كان لهُ عند الآب قبل انشاءِ العالم ولبس الضعف البشري

وخضع تحت الاهانة والالآم . والاب لاجلها لم
يشفق على ابنهِ الوحيد بل سلّمهُ الى ايدي الخطاة .
فان كان جميع ذلك صادقا فكيف يكون انكار
موت المسيح مثلاً مما لا يلتفت الله اليهِ . او كيف يحسبهُ
الباري تعالى خطأً عرضيًّا ان تغافلنا عن هذا المخلص
والتجأنا الى غيرهِ من اجل الخلاص . او كيف لا
يسال عن ضلالنا اذا ظننا ان صلاحنا وبرّنا يخلصاننا
منزّلين بذلك اتعاب المسيح وآلامهُ منزلة العبث . اما
يكون جميع ذلك انكارًا لما هو اعظم الامور عند الله
واهانةً لهُ . هذا ان كان كلام الانجيل من الله . والا
فيكون قبول هذا التعليم من باب التجديف . وعلى
كلا الحالين لا يكون ذلك مما لا يسال الله عنهُ . فينبغي
لهذا الاخ الحبيب ان يطالع الكتاب المقدس جيدًا
لكي يعرف مقدار قيمة تعاليمهِ المتعلقة بقضية الفداء
بدم المسيح . وحينئذٍ يرى مقدار الوهم الذي وقع فيهِ

الفصل السابع

في وجوب وضع الشريعة وان نواميس الطبيعة لولا تكرار صدور افعالها على حواسنا لكان العقل ينفي تصديقها

ان احكام العقل الانساني على الاشيآء سلباً او ايجاباً لم تكن على طريقةٍ واحدة . فانهُ تارةً يحكم على الشيءِ حكماً وجوبيًّا وتارةً حكماً نسبيًّا وتارةً حكماً قياسيًّا .

فالحكم الوجوبي هو ما لا يُحتَمل فيهِ وجهٌ آخر كالحكم على العدد بانهُ اما زوجٌ واما فرد . وعلى الجسم الواحد بانهُ لا يشغل مكانين . وكذا الحكم بان هذا الشيءَ لا يكون عين ذاك . وان كل جسمٍ لهُ ست جهاتٍ وان كل اثرٍ لا بد لهُ من مؤثّرٍ . وان الجسم لا يكون ابيض وغير ابيض معاً الى غير ذلك من الضروريات

واما الحكم النسبيُّ فهو ما كان الحكم فيهِ بالنسبة الى قضيةٍ اخرى معلومة . كما اذا حُكم على هذا الشيءِ

بالكثافة مثلاً بالنسبة الى معلومٍ الطف منهُ . وعلى ذلك بالطول بالنسبة الى معهودٍ اقصر منهُ . وعلى ابعاد الكواكب بالنسبة الى المقياس الموضوع للتقدير الى غير ذلك من النسبيات

واما الحكم القياسي فهو ما عرفهُ الانسان بحسب العادة المقررة من تكرار الحوادث على حواسهِ مع جهالة العلة الحقيقية الموجبة لصدورها . كالحكم على المغناطيس انهُ يجذب الحديد . وان الاجرام السموية تجذب بعضها . وان الحرارة تمدّد الاجسام . وان المادَّة الضوئية وحدها اذا انعكست للعين تُريها المنظورات . وان الماء يطفي النار وان الريح تضرمها . وان رطوبة الارض توجب نبات البذور الى غير ذلك مما ليس في طاقة الانسان معرفتهُ

فهذه القضايا تُسمَّى نواميس الطبيعة او شرايعها وجميعها مما لا يستطيع الانسان ان يدرك العلة الحكمية

فيهِ ولكن جدُّ ادراكهِ انما هو ما تقرر عندهُ من المشاهدات كما انهُ لا يعلم لماذا انواع النبات العايشة في ارضٍ واحدة او بالحري المطعَّمة في شجرةٍ واحدة يثمر بعضها حلوًا وبعضها مرًّا وبعضها حامضًا. وهي تغتذي باصلٍ واحد وساقٍ واحد من ارض واحدة. ولماذا يوجد في تحليلها من العناصر الكيماوية ما لا يوجد في غذآيها. وهكذا لا نعلم ما هي الوصلة الكاينة بين صيوان الاذنين واعضاء التناسل لاننا نجد الحيوانات ذوات الآذان البارزة تلد وغيرها تبيض ما عدا الحيات المسَّمة فانها تلد ولادة وما باض منها فلا سمَّ فيهِ. ولا نعلم لماذا يقف الديك شاخصًا لا يتحرك عند ما تخطُّ امامهُ بالحبر على الورق خطًّا طويلاً ممتدًّا تجاه عينيهِ. ولماذا لا يؤثّر ذلك في الدجاجة

فتقرير العادة بتكرار هذه النواميس على حواس الانسان قد جعلهُ يعتبرها انها امرٌ سهلٌ مع ان كل

واحدةٍ منها تقصر عقول جميع البشر عن ادراكها . هذا
وان النار اشهر الاشياء معرفةً . فلو فرضنا وجود قومٍ
لا يعرفونها وقيل لهم ان شرارةً منها اذا اصابت جسماً
الهبتهُ وصار لهُ نورٌ عظيمٌ حتى يتلاشى . ولو صادف
هذا الجسم مدينةً احرقها . ويمكنهُ ان يحرق مدن العالم
باسرها مع غواب البراري ويتلف كل ما هو قايمٌ على
سطح الارض ويجعلها خرابًا ولا يبقى مما يصادفهُ الا
رمادٌ قليلٌ فمن غير شكٍ انهم يحكمون باستحالة
وجود جسمٍ مثل هذا لانهُ مما يفوق الادراك البشري

فلنترك ما تقدم من الامور الفايقة طاقة البشر
وننظر في الاختراعات التي اتصل اليها الناس مما لم
تدركهُ القدماء . فماذا نقول في اختراع السيَّال
الغلواني الذي اذا اصاب اعصاب الميت يظهر فيهِ
الافعال الحَيَويَّة . وماذا نتصوَّر في القاء السبات
العميق على انسانٍ بمجرد حركاتٍ واشاراتٍ من انسانٍ

اخر. واذا صحّ القول على اخبار هذا النايم بالغايبات افلا يكون ذلك من عظايم خوارق العادات الفايقة حدود ادراك البشر

فهذه القضايا القليلة التي ذكرناها عدا الكثيرة التي لم نذكرها هي كافية للبرهان على قصور العقل البشري عن ادراك كثيرٍ من الحقايق مما هو واقعٌ تحت حواسهِ. وان ما عرفهُ الانسان منها انما هو معرفةٌ قياسية يحكم بصدقها قياساً على ما تكرر من وقوع حوادثها تحت حواسهِ لا بواسطة ادراكهِ لحقايقها. لانهُ لو لم يشاهد حوادثها لكان ينفي تصديقها وتصير عدمية بالنسبة الى قصور ادراكهِ ولو كانت وجودية بالنسبة الى حقيقة ذاتها. ويشهد بهذا قضايا كثيرة مما كان العقل يحكم بعدم جوازها ثم كُشِفَت لهُ فحكم بتصديقها

واذا كان قد وجد للطبيعة نواميس عالية عن

الادراك البشري ولم تزل معرفة اكثرها غامضة عنهُ بالكلية وحكم العقل بوجوب تصديقها عند ما تقدمت لهُ شهادة الحواس على بعض ما ظهر من نتائج فعلها . افما يجب عليهِ بنوعٍ اولى ان يحكم بوجود نواميس سامية لمن اوجد الطبيعة واعطاها النواميس ويكتفي بالشهادة على صدقها مما اتضح لهُ جليًّا من صدق النبوات وعمل المعجزات ومن ظهور تاثيرها في بني البشر . اذ لا يوجد قومٌ الا وافتكروا بوجوب الشريعة واعتقدوا بان جهلهم العلَّة في وجوبها وكيفية صدورها لا يمنع تصديقها وقبولها مع ان اهمّيتها لحسن نظام العالم هي علةٌ كلية الايجاب . لان الحكيم العادل لا يليق بسمو شان جلالتهِ عدم اظهار حكمتهِ في حسن ترتيب مخلوقاتهِ العاقلة واجراء العدل وانتظام السياسة فيما بينهم . وهذا لا يتمُّ بدون وضع الشريعة ولاسيما اننا نرى الحكمة الالهية لم تهمل

الجمادات كالكواكب والارض بدون ترتيبٍ وقوانين لا نتعداها . هذا وان الانسان مع كونهِ مخلوقًا ضعيفًا لا بد ان يضع شريعةً لاهل بيتهِ لاجل حسن انتظامهم واستدامة راحتهم وتعليمهم ما يجب عليهم من الطاعة لمراسيمهِ والقيام بخدمتهِ الواجبة لهُ عليهم لانهُ هو المهتمّ باعالة جميعهم . فكيف يليق بعظمتهِ تعالى ان يهمل مخلوقاتهِ الناطقة بدون شريعةٍ تربط نظامهم .

وفي هذا كفايةٌ لذوي البصيرة

الفصل الثامن

في ان الديانة هي من اهمّ الامور الواجبة على الانسان فلا يُعذَر العاقل باهمالها

ان الخطأ في الاحكام العقلية يتفاوت الضرر الناتج عنهُ في القلّة والكثرة بحسب تفاوت الموضوع المحكوم عليهِ. فالحكم على انسانٍ مثلاً بغرامة شيءٍ من الدراهم ظلماً لا يكون ضررهُ كما لو حُكِم عليهِ بقطع اليد او بالقتل. ومن اخطأ في حكمهِ على قضايا زمنية فالضرر الناتج من حكمهِ يكون على الغالب محتملاً وربما يتعوَّض من جهةٍ اخرى. ومهما تعاظم امرهُ فلا يكون باكثر من قتل الجسد وجميعهُ ينتهي بنهاية حيوة الانسان القصيرة

ولهذا كان الواجب على الانسان ان يحترز غاية

الاحترازمن وقوع الخطا في حكمهِ وان يكون حرصهُ على ذلك بحسب اهمّية القضية المحكوم عليها كما في موضوعنا هذا الذي هو وجوب الديانة ومعرفة الصحيح منها . فانهُ لا يوجد موضوعٌ يضاهيهِ فضلاً عن ان يفوقهُ لان خطأ الحكم فيهِ لا يمكن ردُّهُ فيما بعد ولا يوجد وجهٌ اخر يعتاض منهُ الضرر الناتج عنهُ بل يكون ضررًا ابديًّا عديم النهاية لا يمكن الخلاص منهُ ما دام الله موجودًا

فاذا كانت القضية هكذا فكم ينبغي للعاقل من الاحتراز لكي لا يخطي في حكمهِ عليها اذ ليس للانسان ما يهمُّهُ نظيرها . وكيف يليق بذي عقلٍ ان يتهاون بامرٍ كلّي العظمة مثل هذا . فهل يمكنهُ الحكم بعودةٍ ثانية الى الحيوة فى دهرنا هذا لكي يصلح فيها فساد حكمهِ . هذا لم يقع الا لمعجزةٍ فايقة الطبيعة ونادرة جدًّا . ومع ذلك فالانسان الخارج عن الديانة لا يصدّق

المعجزة ولا قيامة الموتى. ولو صدق بها لم يكن محتاجًا الى كلامٍ بهذا الخصوص

وان قال بانكار بقآء النفس والثواب والعقاب فنسألهُ اولاً هل ان وجود ذلك ممتنعٌ وجوبًا وعليهِ البرهان ام هو مظنونٌ. فلا بد ان يعجز عن البرهان ويدَّعي بحكم الظن بنآء على انهُ لم ينظر ميتًا قام ولا نفسًا صعدت الى السمآء او هبطت الى جهنم. وحينئذٍ يسوغ لنا ان نسالهُ ثانيًا يا ترى ماذا تكون حالة المتمسك بهذا الظن اذا وجد نقيضهُ صحيحًا ثابتًا لان الظن يخطي احيانًا كثيرة. واذا وجد خلاف المظنون فماذا يكون حينئذٍ للانسان من التدبير في خلاصهِ من الضرر الذي التحق بهِ موبَّدًا. او بماذا يستعيض عن هلاك نفسهِ الوحيدة

والذي يعتمد على هذا الظن ويرفض الديانة كيف لا يفتكر بامكان غلطهِ مع امكان وجود

النقيض الذي لو اخطأ ظنهُ بوجودهِ لم يكن في ذلك خطرٌ عليهِ البتة لا في هذا العالم ولا في الدهر الآتي بخلاف الظن بنفيهِ فانهُ يجعل المتمسك بهِ اشقى الناس حظًّا مدة حيوتهِ وبعد موتهِ

وفضلاً عما تقدم نقول ما هو الخير الناتج للانسان من تكذيب الشريعة. واي شرٍّ نتج منها لكي يجتهد في ملاشاتها. فان كان الذين يتكلمون ضد الشريعة فلاسفةً بالحقيقة فكيف يليق بالفيلسوف ان يسعى في هدمها لانهُ اذا ظنَّ انها لا تنفع بعد الموت فصلاحها ونفعها الحاضر مما لا يسعهُ انكارهُ. فالذي يسعى في هدم الشريعة يكون بلا ريبٍ ساعيًا في هدم نظام المسكونة وتدميرها لانهُ يرفع منها الصلاح والسلامة ويشحنها بالفتن والشرور. ومن كانت هذه نتيجة سعيهِ فهو فاقد الحكمة والاجدر بهِ ان يُدعَى جاهلاً لا حكيمًا لاننا نرى في حالة البشر من حسن التمدن والصلاح

والتوحش والشر على مقدار ما نرى من ذلك في شرايعهم وفي كيفية تمسكهم بها. ولا نرى متديناً على ما يجب يقتل او يربط الطرق او يضرُّ الناس او يعمل ما يزعج بهِ راحة الممالك بل نرى كل ذلك بعكس ما ذكرنا

واذ كان في استطاعة الانسان ان يميّز صحيح الديانة من فاسدها كما تقدم الكلام فلا يُعذَر باهمالهِ الفحص عنها والتمسك بها. ولا يكفيهِ ان يعرف منفعتها ويكون بمعزلٍ عنها كالطبيب الذي يعرف الدوآء ولا يستعملهُ في مرضهِ فيهلك بتركهِ بل يجب عليهِ استعمالهُ لينهض من مرضهِ. وهكذا يعطيهِ لذوي الاسقام والا فيصير مثالاً ردياً لمن يقتدي بهِ ويتحمَّل وزر المتشبهين بجالهِ

وعلى حسب ما تقدم بيانهُ يحكم العقل ويجزم بصلاحية الديانة. واذ كانت صالحةً فهي ضرورية.

واذ هي ضرورية ٌ فلا بد ان تكون موضوعةً من الله. لان الباري تعالى بحسبما هو في ذاتهِ كلّي الصلاح والحكمة لا يمكن ان يهمل ما هو ضروريٌّ من وضع الشريعة الصالحة لاجل اتمام نظام مخلوقاتهِ. وهذا يكفي للعاقل بان يكون مجتهدًا في سعيهِ لتحصيل الديانة الصحيحة والتمسك بها. ويرفع عقلهُ الى واهب العقول بالتواضع والخشية. ويلتمس من رحمتهِ نعمة الهداية. فاذا استعمل عقلهُ وبذل جهدهُ في الفحص وطرح عنهُ رداءَ الكبرياءَ والتعصب الوراثي وطلب الهداية من الله بايمانٍ وحرارةٍ فمن غير شكٍ ان الباري تعالى يتحنّن عليهِ ويعين ضعفهُ ويضيء لهُ مصباحًا منيرًا في ضميرهِ ليهديهُ الى سبيل الحق المؤدّي الى الحيوة الدائمة. ويبعدهُ عن طريق الباطل الذي يقودهُ الى الموت الابدي

واما اذا اهمل ما يجب عليهِ التمسك بهِ كما تقدم

فان مدة الحيوة الارضية قصيرةٌ جدًّا وجميع الطيّبات فيها زايلةٌ لامحالة. ولا بد ان ياتيه داعي الموت عند ما لايمتلك فرصةً لاصلاح ما فرط منهُ ويخسر الخسارة الجسيمة بتلاف نفسهِ الثمينة التي لاعوض لهُ عنها. ومن ثَمَّ يهوي الى تلك الحفرة الجهنمية التي لا نجاة لهُ منها الي الابد حيثما يوجد قطع الرجآء وعدم الرحمة. وحينئذٍ لايجد شفاعةً ولا ملجأً وتنقطع كل وسيلةٍ يؤمّل بها الخلاص ويندم حيث لا ينفع الندم ويستعيض عن المجد السموي ومشاهدة الله وابرارهِ الصالحين بالسكنى الابدية في جهنم النار ومعاشرة الشياطين واصحابهم الاشرار الهالكين. فنسألهُ تعالى ان يتحنن على جبلة يديهِ ويرحم جميع عبيدهِ بني البشر وينعم عليهم بروح التواضع والهداية الى معرفة الحق لتكون لهم فرصةٌ للخلاص من السقوط في وهدة الهلاك الابدي ويرجوا السعادة والمجد الدايم المُعَدّ

لهم في الملكوت السماوي منذ انشآء العالم ليسبحوهُ ويمجدوهُ الى ابد الابدين

امين

م

طبع في بيروت سنة ١٨٥٣ مسيحية